اسماعيل باشا صبرى

شيخ شعراء العصر

١٨٥٤ – ١٩٢٣ م

بمناسبة مرور عشر سنوات على وفاته

هل أناك حديث اسماعيل ؟! فى اليوم السادس عشر من شهر فبراير لسنة ١٨٦١ – وقيل لسنة ١٨٥٤ وهو الأصح – أشرقت بمدينة القاهرة شمس حياة شيخ شعراء هذا العصر اسماعيل باشا صبرى . وقد نشأ صبرى بين ربوع هذه المدينة التى تعد ، باتفاق الآراء ، أعظم مدينة تقوم على ضفاف نيلنا المبارك المحبوب .

وقد تغذت منذ الصغر عواطف هذا الشاعر الفنان بكل مافى مناظر عروس الوادى « مصر » من ضروب المحاسن المتجددة ، وأنواع المشاهد الفنية والطبيعية الساحرة ، ولذا قد جاء شعره مصوغاً فى قوالب وأوضاع جديدة ، كلها الحسن ، وكلها الفن ، وكلها السحر !

لقد كان «صبرى» شغوفاً بنظم الشعر ، منذ أيام تلمذته الأولى ، وقبل أن يبلغ سن الرشد والادراك . وإن الذى عبد السبيل لهذا التلميذ الشاعر ، ومكنه من البروز فى ميدان الأدب ، هو وجود مجلة « روضة المدارس المصرية » التى أنشئت سنة ١٨٧٠ ، وكان يشترك فى تحريرها نخبة من رجال التعليم البارزين فى ذلك الأوان ، وبعضهم من خريجى الجامعات الأوربية كالأساتذة عبد الله فكرى ، ورفاعة رافع ، وحسين المرصفى الخ . وكان غرض أولئك المعلمين الأعلام المباشر من إصدار هذه المجلة « النصف شهرية » هو تهذيب أساليب فن الانشاء العربى وترقيته ، لأن أنماط الكتابة وطرق التحرير ، كانت ركيكة فى وقتهم لم تستسغها أذواقهم السليمة . وإنى أود أن أتحف القارىء بلتفة من رسالة حكومية ، لكاتب محرر من كتبة الديوان الخديوى فى عهد الحكم الاسماعيلى ، وهى موجهة إلى أحد أعيان البلاد بمناسبة اعتماده عضواً فى مجلس شورى النواب[1] الذى كان يقوم مقام البرلمان اليوم . والمرجو ألا تضحك أيها القارىء أو بالحرى تسأم عند قراءة هذه الأسجاع التى تورث الصداع !

قال الكاتب غفر الله له ورحم أيامه :

« إلى قدوة الوجود المعتمدين ، والأعيان المنتخبين ، زيد إقباله ودام كماله »

(١) هذا المجلس أسسه الخديوى اسماعيل سنة ١٨٦٦ م

« قد علم آل الوطن العزيز ، وفهم أهل الفطن والتمييز ... » إلى أن قال « وأنت قد صار انتخابك فى هذا العام لهذا الخصوص ، وصدق عليك القومسيون المخصوص ، بدلاعن « ؟ » أخيك المرتحل إلى ساحة المولى المليك ... » ثم يقول : « فأحرر هذا إليك إعلاماً بأنك ممن حاز شرف الامتياز بالعضوية فى ذلك المجلس ، مجلس شورى النواب الوطنية ، حسب ماتقرر فى اللائحة الانتخابية ، وكلكم أصحاب روية وأهلية ، وأرباب فطنة جبلية ، وكمال معرفة بالمصالح الداخلية والمنافع المحلية الخ الخ) .

فتأمل هذا الأسلوب السجعى المبتذل الذى لافن فيه ولاجمال ، ووازن بينه وبين أسلوب كتاب اليوم المرسل السلس الذى يسيل رقة وحلاوة وجلاء ورصانة .

كان أولئك الأساتذة الذين أتينا على أسماء البعض منهم يقومون بمهمة تحرير هذه الصحيفة « روضة المدارس » ويحثون نجباء الطلبة على ممارسة الكتابة فيها ، وكانت المجلة تنشر بحوث الأساتذة محررها المجددين ، ومقالات تلاميذهم جنباً إلى جنب ، حباً فى تشجيع النشء ، وترويضه على حب الأدب . وأنا أتمنى أن أرى « بكلية غردون بالخرطوم » مجلة كهذه تجيب إلى نفوس الطلبة أبناء بلادى السودانية ، التعلق بأذيال الأدب ، ومزاولة الانشاء العصرى الفنى ، ولقد كان عبدالله فكرى ورصفاؤه هم المصابيح التى استنارت بها العقول فى فجر نهضة الشرق العلمية والأدبية والفنية .

وفى سنة ١٨٧٨ م احتجبت مجلة « روضة المدارس » بعد أن عاشت ثمانى سنوات أسدت فى خلالها أبيض الأيادى للأدب وخدمت شعراء مصر الناشئين خدمة جليلة تستحق الذكر وتستوجب الشكر .

وقد نشرت مجلة « روضة المدارس » فى بداية أعوامها قصيدة مرفوعة إلى عزيز البلاد إسماعيل باشا ، موقعة بامضاء طالب صغير بالمدارس الثانوية يهنئه فيها بالعيد ، وعمر هذا الطالب ستة عشر عاماً . وأما اسمه فاسماعيل صبرى ، وأنا أكتفى بايراد بعض ما جاء فى هذه القصيدة من الغزل . قال شاعرنا التلميذ :

سفرت فلاح لنا هلال سعود ... وغنا الغرام بقلبى المعمود

ورنت بأحور طرفها وتبسمت ... فبدا ضياء اللؤلؤ المنضود

يارية الطرف الكحيل تعطفى ... وعلى محبك بالمودة جودى

واستأنفى موصول عائد ألسنا ... فالقرب عيدى والبعاد وعيدى

دع ياعذول ملامتى فى غادة ... هيفاء قد فاقت جميع الغيد

عربية لو واجهت بدر الدجى ليلا لقال البدر : تم سعودى
والله لولا الله بارىء حسنها لجمالها الزاهى جعلت سجودى
قسماً بنور جبينها وبخالها وسواد عين واحمرار خدود
وبقوس حاجبها وسهم لحاظها وبخصرها وقوامها والجيد
ليطيب لى فى حبها ذلى كما فى مدح «إسماعيل» لذ نشيدى
سمح تراه إذا حللت بسوحه أبداً يحن إلى خصال الجود !!

ولئن قال قائل : إن هذه الأبيات خالية من روح التجديد والابتداع ، وإن هى إلا محاكاة ليس إلا لطريقة صفى الدين الحلى ؛ وابن معتوق الموسوى وسواهما من الشعراء الذين تفوقوا على غيرهم بالمقدرة على نظم بهرج الألفاظ دون الالتفات إلى سمو المعانى وجودتها، فانى أقول لهذا القائل إن قوانين النقد العادلة لا تستبيح التعرض أو التعدى على آثار تلميذ صغير مازال فى مستهل حياته الأدبية ، ثم إنى أرى أن هذه الأبيات على علاتها ، تعد نفحة من نفحات الزمن ، ولاسيما فى ذلك العهد الذى انطفأ فيه نبراس البيان العربى ، وتدهورت ملكة اللغة إلى أسفل الادراك حتى إن الجمهور كان يطلق لقب أديب أو أديبانى على مثل هذا الشاعر المهرج المستجدى القائل :

أنا الأديب الأديبانى ألم عيش تحت باطانى
وأودى عيشى لمراتى حلوه قوى ست النسوان

فيجيبه مناظره مفتخراً مرفوع الرأس منتفخ الأوداج قائلا :

أنا أديب أأدب منك ألم عيش أكتر منك
جاتك رصاصة فى ودنك تعاملك شرب الدخان

شرم برم حالى غليان !

وقبل الاسترسال فى استعراض سيرة الرجل أفضل أن أقف بالقارىء هناهنيهة لأقول له : إن «صبرى» لم يكن هو أول شاعر عصرى أنهض فن الشعر حديثاً من كبوته ، وإنما الذى أنهضه وأعاده إلى ما كان عليه من جودة اللفظ فى العصور الخوالى هو البارودى[1] ؛ ولكن البارودى مع رصانة شعره ومتانة قوافيه ، كان قديماً فى معانيه وفى فهمه للحياة أكثر من القدماء أنفسهم ، وقد ظل البارودى لابساً ثوب المثل العيقرى ، أو المقلد للشعر القديم إلى أن انتهت فصول رواية حياته وأسدل عليها الستار بين مظاهر الاستحسان والاعجاب ، وهو بخلاف

(١) ولد البارودى سنة ١٨٣٩ م . وتوفى سنة ١٩٠٤

«صبرى» الذى عند مادخلت شاعريته فى طور النضوج، نفض عن الشعر العصرى غبار الاحتذاء والتقليد ، وصار شعره يسير حاملا شعار الحديث الخاص ، ويمكننى أن أقول إن البارودى كان أباً لنهضة الشعر العصرى ، وإن «صبرى» هو الذى غذاها بحصافة فكره وتعهدها بالتربية والتهذيب ، كما سيمر بك عند الكلام عن اتخاذ شعراء العصر «صبرى» أستاذاً لهم ، يعرضون عليه أشعارهم قبل إذاعتها .

وإنى قد وجدت حتى فيلسوف شعراء هذا العصر ! ! أستاذنا العقاد يشاركنى إعجابى بصبرى ، فاسمعه يقول : « ولم يتفق لى أن أحادث هذا الشاعر « صبرى » قط ، ولا اجتمعت به فى مجلس للكلام ، ولكنى سمعت الكثير من آرائه وملاحظاته التى تنبيء عن شاعرية صحيحة وذوق جيد ، وفطنة فنية فائقة، وأعجبنى من هذه الملاحظات خاصة ، ازدراؤه على التشبيه بالزبرجد والياقوت والمرجان وبقية تلك الجواهر التى كلف المتأخرون بذكرها فى أشعارهم، ثم كراهيته للاكثار من : كأن وكأنما ، رغبة منه فى أن يكون التشبيه محسوساً بالفكر لاملفوظاً باللسان !! وهذه صحة ذوق يزيدها فى القيمة أن الشاعر نبه إليها قبل أربعين سنة أو نحو ذلك؛ أى فى الوقت الذى كانت جودة التشبيه فيه تقاس بنفاسة المشبه به، وكان الرأى الغالب بين الأدباء أن ابن المعتز أبرع المشبهين ، لأنه كان يذكر الذهب والفضة والغالية فى شعره » .

ولأعد بك أيها القارىء مسرعاً إلى ما كنت عليه من استعراض سيرة حياة شيخ الشعراء ، خشية أن يتسرب الملال إلى نفسك من إطالة الوقوف ، وإن كنت لا أعتقد أن فى الوقوف على مثل هذه المعلومات مايجعل النفوس تشعر بشىء من الملال بل بالعكس .

لم أقف فى المراجع التى بين يدى على شىء من تاريخ الأسرة الصبرية، ويلوح لى أن أسرة «صبرى» لم تكن ذات شهرة أو مكانة ملحوظة بين الأسر المصرية التى تمت إلى علو الشأن بنسب عريق ، وإنما صبرى هو أول من ذاع صيته فى الآفاق وملأت شهرته الأفواه والأسماع، دون بقية أفراد أسرته، وتستطيع أن تستنتج ذلك من هذه الأبيات الواردة فى مرثية شوقى لصبرى :

إن فاته نسب « الرضى » فربما جرياً لغاية سؤدد وطراف
أو كان دون « أبى الرضى » أبوه فلقد أعاد بيان عبد مناف
شرف العصاميين صنع نفوسهم من ذا يقيس بهم بنى الأشراف ؟
قل للمشير إلى أبيه وجده أعلمت للقمرين من أسلاف ؟

أودع القارىء هنا ، على زعم أن ألتقى به فى العدد القادم لتتمة البحث ؟

أم درمان [سودان] المبارك ابراهيم